المعاني القرآنية في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي

بقلم: د. يحيى الجبوري*
العراق

لقد صور شعراء الصدر الأول والعصر الأموي الحرب ضد المشركين وأعداء الدين، وما فيها من أجر الشهادة، والفوز بالنصر ورضوان الله تعالى، ووصف المقاتلين ومصاب القتلى والجرحى، وبلاء الأبطال المسلمين في الحروب، وما إلى ذلك، وكان ديدن الشعراء المسلمين استلهام المعاني القرآنية في أشعارهم الحربية خاصة، فقد زينوا شعرهم بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه واستلهموا من الآيات القرآنية صفة الجنة والنار، وعبروا عنهما في أشعارهم، كما أفادوا من القصص القرآني في ذكر الأنبياء والأقوام البائدة ومصائرهم، ولم يغادر الشعراء اسما ولا معنى من معاني القرآن الكريم إلا أفادوا منه في أشعارهم، فنجد في معجم هؤلاء الشعراء شيوع معان ومفردات من مثل: الإيمان، والإسلام، والنبي، والرسول، والشهادة، والشهيد، والصلاة، والركوع، والسجود، والصيام، والحج، والهدي، والضلال، والحمدلله، ورب العالمين، وذي العرش،، ورب المشارق والمغارب، وفي سبيل الله، وأولياء الله، والكفر، والشرك، والنفاق، وغير ذلك كثير.

* كاتب وناقد عراقي ، أستاذ بجامعة إربد الأهلية بالأردن.

ويكاد الشعراء ينظمون المعاني القرآنية بألفاظها التي جاءت في القرآن الكريم . وكانت أشعار هذا الجيل قدوة لمن جاء بعدهم من شعراء العصر العباسي . ونبدأ ملتمسين البركة بصورة الجنة التي جاءت في شعر الشعراء.

الجنة:

ذكر الشعراء الجنة ووصفوها في أشعارهم الحربية كما جاءت في القرآن الكريم، فهم حين يخوضون حومات الوغى كانت أعينهم معلقة في الجنة، فكأنهم كانوا يرونها وهم يجالدون أعداء الدين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة) ، وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان). وقد استلهم كعب بن مالك هذه الآيات الكريمة في ذكر مصير سعد بن عبادة الذي استشهد بعد غزوة الخندق [١]:

فإما تقتلوا سعدا سفاها
فإن الله خير القادرينا
سيدخله جنانا طيبات
تكون مقامة للصالحينا

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان)، ويفيد ضرار ابن الأزور من هذه الآية في أرجوزته في أحد الفتوحات الشامية [٢]:

الموت حق أين لي منه المفر
وجنة الفردوس خير المستقر

ويقول ربيعة بن معمر محرضا المسلمين على القتال في فتح الشام [٣]:

ولله في عرض السماوات جنة
ولكنها محفوفة بالمكاره

مقتبسا وصف الجنة وملمحا إلى السعة والبسطة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران).

وتتمثل صورة الخلود في الجنة في ذهن جندب ابن عامر بن الطفيل قبل استشهاده في يوم اليرموك [٤]:

فإن الخلد في الجنات حق
تباح لكل مقدام سليم

ووصفت الجنة بالفردوس وفيها الخلود . قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون)، فيستلهم جرير معنى الآية في مدحه للعباس ابن الوليد بن عبدالملك من القادة الشجعان . وقد افتتح مدنا كثيرة في بلاد الروم[٥]:

أعطيت من جنة الفردوس مرتفقا
من فاز يومئذ فيها فقد خلدا

والجنة عالية رفيعة القدر، قال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾(الحاقة)، فتناول حسان بن ثابت هذا المعنى في رثائه لحمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ يقول [٦]:

صلى عليك الله في جنة
عالية مكرمة الداخل

وفي الجنة ظل وارف دائم لا حر فيه ولا برد:﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾(المرسلات).

يقول حسان في رثاء شهداء مؤتة[٧]:

فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملتف الحدائق أخضر

ويدعو النابغة الجعدي لقومه الذين هاجروا طلبا للشهادة أن يفوزوا بالجنة الوارفة الظلال التي أعدت للمجاهدين[٨]:

هاجروا يطلبون ما وعد الله
ـه فبانوا وجارهم غير قال
فسلام الإله يغدو عليهم
وفيوء الفردوس ذات الظلال

وفي الجنة غرف تجري من تحتها الأنهار أعدت للمؤمنين، يقول الفرزدق في رثائه الجراح بن عبدالله الحكمي الذي استشهد في غزوة مرج أردبيل[٩]:

إلى الغرفة العليا رفيق محمد
مقيما ولا منها هو الدهر رائم

ناظرا إلى الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(العنكبوت).

وكذلك يتناول هذا المعنى قيس بن عبدالله في جزاء أصحابه المجاهدين[١٠]:

ساروا إلى الله حتى أنزلوا غرفا
من الأرائك في بيت من الذهب

ورزق الجنة دائم واسع،وأهل الجنة ينعمون بالنعيم الدائم قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾(غافر) . وينظر علي بن أبي طالب إلى هذا المعنى في رثائه لحمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنهما، فيقول [١١]:

ومن هو في الجنان يدر فيها
عليه الرزق مغتبطا حميدا

وينعم المؤمنون في الجنة بشراب طيب عذب طهور، قال تعالى : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ (الإنسان)، وتتمثل في ذهن جعفر بن أبي طالب هذه الصورة فيقول قبل استشهاده رضي الله عنه في غزوة مؤتة [١٢]:

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبة وبارداً شرابها

ومن نعيم الجنة تزويج المؤمنين بحور عين، قال تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾(الدخان):

وينظر عبيدة بن الحارث لهذا المشهد حين قطعت رجله في غزوة بدر [١٣]:

فإن تقطعوا رجلي فإني مسلم
أرجي بها عيشا من الله دانيا
مع الحور أمثال التماثيل أخلصت
مع الجنة العليا لمن كان عاليا

ويتناول حسان بن ثابت هذا المعنى في رثائه لخبيب ابن عدي الذي استشهد بعد يوم الرجيع، قتله صبرا مشركو مكة، قال حسان [١٤]:

فاذهب خبيب جزاك الله طيبة
وجنة الخلد عند الحور في الرفق

وبهذه الأشعار وغيرها استطاع الشعراء أن يستلهموا صورة الجنة في الآيات القرآنية وأفادوا منها في شعرهم في الحروب الإسلامية.

القصص القرآني

وكان القصص القرآني مجالا لاستلهام الشعراء، فتناولوا ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والرسل، والأمم البائدة فرددوها في شعرهم ملتمسين منها الهداية والعبرة، فكثر في شعرهم قصص الأنبياء: نوح وإبراهيم وداود وموسى وشعيب، ومن الأمم عاد وثمود وأهل مدين وسبأ، وكانت إفادة الشعراء من المعاني القرآنية متفاوتة، فمنهم من جاءت هذه المعاني في شعره اقتباسات بنص الآيات، ومنهم كانت إفادتهم لمحات وإشارات . وكانت قصة نوح عليه السلام واضحة في ذهن الشعراء، إذ نادى ربه، قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ (الأنبياء) . ويتناول جرير معنى الآية في دعاء نوح في مدحه للحجاج حين انتصر على جيش ابن الأشعث [١٥]:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح
فأسمع ذا المعارج فاستجابا

واستلهم الشعراء قصة السفينة ومخاطبة نوح لابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ (هود)، يتناول النابغة الجعدي هذا المعنى في دعوته إلى الجهاد والاعتصام بحبل الله الذي لا ينجو من العذاب يوم القيامة إلا من رحم [١٦]:

فائتمروا الآن ما بد لكم
واعتصموا إن وجدتم عصما
في هذه الأرض والسماء ولا
عصمة منه إلا لمن رحما

وفي الآية الكريمة أن نوحا عليه السلام قد قاد السفينة ونجا ومن معه . فينتفع جرير من هذا المعنى

> • استلهم الشعراء في الصدر الأول المعاني القرآنية ، وضمنوا كثيرا من ألفاظ القرآن في أشعارهم وكان شعرهم قدوة لمن جاء بعدهم.

في مدحه لسلمة بن عبدالملك حين قاد الجيوش وخرج سالما منتصرا[١٧]:

مَسْلَمُ جرار الجيوش إلى العدى
كما قاد أصحاب السفينة نوح

وهذا استلهام للآية الكريمة: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴿٤٨﴾﴾ (هود).

ويفيد الشعراء المسلمون من قصة موسى عليه السلام حين خالفه بنو إسرائيل ورفضوا دخول الأرض المقدسة في قوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴿٢٤﴾﴾(المائدة)، ويستلهم ابن السجف المجاشعي أحد الفرسان الذين كان لهم بلاء حسن في فتوح بلاد سمرقند، يصور جنده الذين ثبتت أقدامهم ولم يتخاذلوا أمام الجموع الكثيفة من جيش الترك[١٨]:

لما رأوهم قليلا لا صريخ لهم
مدوا بأيديهم لله وابتهلوا
وبايعوا رب موسى بيعة صدقت
ما في قلوبهم شك ولا دغل

وفي القرآن الكريم آيات في صبر الأنبياء ونجاتهم من القوم الكافرين والخلاص من ظلمهم وشرورهم، ويقتدي عمار بن ياسر بسير الأنبياء وصبرهم على الأذى ويدعو ربه أن ينجيه، وذلك حين يصور حاله فيقول[١٩]:

فإن يقتلوني فلم أكن
لأشرك بالرحمن من خيفة القتل
فيا رب إبراهيم والعبد يونس
وموسى وعيسى نجني ثم لا تبل

وقد سخر الله سبحانه الحديد لداود عليه السلام فألانه له ليصنع دروع القتال في قوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد ﴿١٠﴾ أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير ﴿١١﴾﴾ (سبأ)، ويأخذ العباس ابن مرداس هذا المعنى القرآني حين يصف الدروع التي لبسها المقاتلون المسلمون يوم حنين [٢٠]:

كانت إجابتنا لداعي ربنا
بالحق منا حاسر ومقنع

• اتخذ الشعراء من تصوير الجنة كما جاء في القرآن الكريم وسيلة للترغيب في الشهادة في سبيل الله.

في كل سابغة تخير سردها
داود إذ نسج الحديد وتبع

ونظر الشعراء المسلمون إلى الأقوام التي أهلكها الله بكفرها وطغيانها، فاستلهموا الآيات التي صورت أحوالهم، وصوروا حال المشركين والمرتدين من أعداء الدين، يقول عوف بن عدي الكندي مصورا مصير المرتدين من أهل كندة [٢١]:

لا بل أخاف عليكم مثل الذي
لاقت ثمود قبل ذاك وصالح

ناظرا إلى قوله تعالى:﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴿٥﴾﴾ (الحاقة)، وقوله تعالى :﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿٧٨﴾﴾ (الأعراف). ويلتمس النابغة الجعدي العبرة من أهل سبأ في قوله تعالى : ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴿١٥﴾ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ﴿١٦﴾﴾ (سبأ)، وما نزل بهم بعد أن كانوا في خير ونعيم . يذكر ذلك في فناء ملك فارس [٢٢]:

يا أيها الناس هل ترون إلى
فارس بادت وخدها رغما
أمسوا عبيدا يرعون شاءكم
كأنما كان ملكهم حلما
من سبأ الحاضرين مأرب إذ
يبنون من دون سيله العرما

ونظر الشعراء إلى الآيات التي جاءت في ذكر عاد وما حل بهم في قوله تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴿٦﴾ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية

أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ (الحاقة)، فيستحضر عبدالله بن رواحة قصة قوم عاد فيذكر بها قريشا التي صدت عن الإيمان وطغت وتكبرت [٢٣]:

نزوع قريشَ الكفر حتى نعلها
بخاطمة فوق الأنوف بميسم
ننزلهم أكناف نجد ونخلة
وإن يتهموا بالخيل والرجل نتهم
يد الدهر حتى لا يعوج سرينا
ونلحقهم آثار عاد وجرهم

ويذكر الشعراء سيرة الأقوام التي طغت وبغت وما حل بهم مثل عاد وثمود وأصحاب الحجر فيخاطبون قريشا التي جحدت دين الحق ويوعدونهم بمصير عاد ومدين وثمود، يقول عبدالله بن الحارث السهمي [٢٤]:

وتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عاد ومدين والحجر

وهكذا نظر الشعراء إلى القرآن الكريم واستحضروا معاني الآيات وأفادوا منها في أشعارهم، وخاصة في شعر الحرب ومقارعة المشركين والمرتدين، وما ذكرناه من شعر الشعراء في صدر الإسلام والعصر الأموي هو غيض من فيض، وقد نهج هذا النهج المبارك في استلهام المعاني القرآنية كثير من الباحثين. ■

• كان القصص القرآني مجالا لاستلهام الشعراء متلمسين الهداية والعبرة.

الهوامش

(١) ديوان كعب بن مالك ص ١٠٦، والسيرة النبوية ٢/٢٥٦ .
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١١٣ .
(٣) فتوح الشام للواقدي ١/٢٨٤ .
(٤) فتوح الشام ١/٢١٠ . والسليم هنا الجريح .
(٥) ديوان جرير ص ١٢٦ .
(٦) ديوان حسان شرح البرقوقي ص ٣٨٤ .
(٧) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٣٣ .
(٨) ديوان النابغة الجعدي ص ١٤٢ .
(٩) ديوان الفرزدق ٢/٢٥١ .
(١٠) معجم البلدان - ياقوت الحموي ٢/١٨٥ .
(١١) ديوان علي بن أبي طالب ص ٥٥ .
(١٢) السيرة النبوية ٢/٣٧٨ .
(١٣) السيرة النبوية ٢/٢٤ .
(١٤) ديوان حسان ص ١٦٨ .
(١٥) ديوان جرير ص ٢١ .
(١٦) ديوان النابغة الجعدي ص ١٤٨ - ١٤٩ .
(١٧) ديوان جرير ص ٨٢ .
(١٨) تاريخ الطبري ٧/١٨ .
(١٩) حلية الأولياء ١/٢٠٠ .
(٢٠) ديوان العباس بن مرداس ص ٩٩ .
(٢١) كتاب الردة للواقدي تحقيق يحيى الجبوري ص ١٨٧ .
(٢٢) ديوان النابغة الجعدي ص ١٤٩ .
(٢٣) ديوان عبدالله بن رواحة ص ١٣١، نزوع قريش الكفر: ندفعهم ونسوقهم كما تساق الإبل .
(٢٤) السيرة النبوية ١/٣٣١ .

بكت الديار

شعر : حامد عبدالمجيد كابلي
المدينة المنورة

بكت الديار، وغارت الأحداق ... والقدس أبكاها هوى ونفاقُ
مسرى النبي غدا يؤرق مقلتي ... وتهز قلبي نحوه الأشواقُ
مسرى النبي غدا سليبا يشتكي ... ظلم الصحاب ، كأنهم أبواقُ
يا قدس لا تبكي ، فديتك إنني ... لرياضك الغناء كم أشتاقُ
أحفاد صهيون تدنس قدسنا ... والمسلمون يلفهم إطراقُ
يا قدس كلا لن تعودي حرة ... حتى يُطلق قومي الإخفاقُ